

هـ. ج. ولز

كان هـ. ج. ولز أديباً عليماً يكتب باللغة الانجليزية . ولكنه كان آخر من يرضى بأن يصف نفسه بأنه انجليزي في قوميته ؛ فقد كان يكافح القوميات ويصف العالم بأنه « قريتنا الكبرى » وقد كتب كثيراً لهذه الدعوة العالمية التي نسير إلى تحقيقها على الرغم من الدعوات الانفصالية التي يزدحم بها عالمنا الحاضر من أثر العقائد والوطنيات واللغات والمذاهب والإمبراطوريات .

وربما ننسى أشياء كثيرة من ولز في المستقبل . ولكن ليس شك في أننا سنذكره بأنه الأب الروحي للعالم الجديد المتحد ، وبأنه أول من عمد إلى وضع التفاصيل لوضع حكومة عالمية ولغة عالمية وموسوعات عالمية ، بل أيضاً لوضع النصوص والشروط التي يستطيع أن يعيش بها أبناء هذا العالم وهم آمنون من استبداد الحاكمين والأولياء حتى الآباء .

وإذا شئنا أن نعين الطراز الذي ينتسب إليه ولز وجدناه أقرب إلى رجال النهضة الأوروبية (من ١٤٠٠ إلى ١٦٥٠) منه إلى عصرنا . فهو من طراز دافنشي الرسام الجيولوجي البشري المستقبلي . والاختلاف بينهما بسيط ، لأن الأول استعمل الريشة والثاني استعمل القلم ، ولكن كليهما عرف قيمة العلم ، وكان على وجدان بمغزاه في مستقبل البشر وعلى تفاؤل بهذا المستقبل .

وقد روى عن دافنشي أنه حين مات حطت على رأسه حمامة ، فكانت رمزاً لطيران الإنسان ، هذه الأمنية التي فكر فيها هذا المفكر في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وكذلك مات ولز وهو يرى بعينه في العام الأخير من حياته هذا الكشف العالمي ، كدت أقول النكوني ، العظيم : الطاقة الذرية تخدم الإنسان . وصحيح أن هذه الخدمة كانت للشر والدمار ، ولكن ماذا في هذا ؟

أجل ! لقد اهتر ولز من هذا الكشف بل تزعزع وتكلم في تشاؤم . ولكن

ما كان أحرأه لو أنه عاش سنوات بعد هذا الكشف أن ينهض ويكافح ، وفق سيرته الماضية ، لاستخدام هذا العلم الجديد في خدمة الإنسان . ولا بد أنه كان يظفر . فقد سبق أن حدثنا في خيال علمي ، بديع مرعب ، عن غارة أبناء أحد الكواكب على أرضنا ، وكيف استولوا في أيام قليلة على الأرض والبحر والجبل والسهل ، وكيف شرعوا يربوننا كما نربي نحن الأرانب ، فإذا جاعوا مصوا دماءنا ، ثم كيف نجونا منهم بالميكروبات ، هذه الميكروبات التي يزرع بها عالمنا وقد تعودتها أجسامنا ، ولكن أجسام هؤلاء الغرباء لم تتعوّدها ؛ ولذلك تمضوا وهلكوا .

وجاءت الطاقة الذرية في العام الأخير من حياة وز ترمز إلى هذا الخيال ، كما حطت الحماسة على رأس دافنشي ترمز إلى صعود الإنسان إلى السماء . وقد تحققت الرؤيا الأولى ، رؤيا دافنشي ، فهل تتحقق رؤيا وز في استعمار الكواكب ؟

وهذا الطراز الجديد من الأدباء يتكاثر في أيامنا . أجل ! أولئك الأدباء العالميون الموسوعيون الذين عرفوا القوة التحريرية في العلم ، أي تلك القوة التي تحرر الناس من الكد وتبسط لهم آفاقا في الحياة الطويلة العريضة حين يكدر لنا الحديد والكهرباء والذرة ، ولا يكون لنا بعد ذلك من هم واهتمام سوى الاستمتاع بالدراسة والكشف والاختراع والوقوف على أسرار الطبيعة . ولو أن وز عاش أيام النهضة الأوروبية حوالي ١٥٠٠ لكان واحداً من رجال النهضة ؛ لأنه كان يدعو في حماسة إلى « البشرية » ، وكان يكافح « الغيبية » . وقد تغير معنى « البشرية » من أيام النهضة لآيامنا ؛ فكانت قبلا دعوة إلى قراءة مؤلفات الإغريق والرومان القدماء . أما الآن فهي ، في معناها الأمريكي ، دعوة إلى مقاطعة الغيبيات .

وليس غريباً أن تنشأ هذه الدعوة في الولايات المتحدة الأمريكية حيث العلم مزاج نفسي وتطبيقات عملي ومذهب ديني . وليس من شك أن لكل هذا تقائصه بل شروره . ولكن للحوادث حتمية تتجاوز النيات البشرية . ومن هنا الحاجة الملحة إلى مثل هـ . ج . وز كي يعمل للتوفيق بين المعارف فلا يجعل إحداها تتمكن منا وتوجهنا بدلا من أن تتمكن نحن منها ونوجهها . وقد أوشك أن يحدث مثل هذا من الطاقة الذرية .

عمد ولز إلى القصة . وهو بلا شك قصاص ماهر ، ولكنه لو خير لآثر على القصة الشرح الموضوعي . وهناك قصص ألّفها في الفترة الأولى من حياته الأدبية يبدو أنه التذّكّرت كتابتها وُسْرَ بما فيها من براعة فنية . ولكنه في السنين الأخيرة ، أو بالأحرى منذ بدءا الحرب الكبرى الأولى إلى الآن ، جعل القصة وسيلة إلى نشر بحوثه الاجتماعية العلمية . ولكن يجب ألا نخطئ فترعم أنه اختار هذا الطراز من القصة ، لأن الاختيار لا مكان له . ذلك أنه حين ابتداء يكتب في العقد الأخير من القرن الماضي كان العصر والظرف ، كلاهما يتيح إلى حد ما ، نبوغاً فردياً أو اجتماعياً شخصياً ؛ فكان هناك مجال للبطل في القصة ، ينوى فيعمل ، ويريد فينجح ، أو على الأقل كان هذا هو الفهم العام . والأغلب أنه كان فهماً مخطئاً حتى في ذلك الوقت . ولكن منذ بدءا هذا القرن أخذ الوسط يتغلب على الفرد ، وكان وسط القوات الاقتصادية الآلية ، فصارت الأعمال « تكيف » النيات وتوجه الإرادات . ولذلك أصبحت قصص ولز رسائل مسهبة في التحليل النفسى أو التضخم الاقتصادى أو الاتجاه السياسى ، وانحط شأن الفرد في القصة لهذا السبب .

سألت ذات مرة أحد القارئین عن أحسن كتاب قرأته في اللغة الانجليزية من حيث الأسلوب . فقلت له ببديهي : كتاب داروين « أصل الأنواع » . ولم أكن مازحاً في هذا ؛ لأننى أحس أن أسلوب التفكير الذهني عند داروين خير ألف مرة من أسلوب العاطفة المزيفة أو الخالصة عند أوسكار وايلد ؛ لأن الفن الذهني خير من الفن العاطفي .

وأسلوب ولز الأديب العلمى هو أسلوب داروين لا أسلوب أوسكار وايلد . ولو أن ولز نفسه سئل عن أسلوبه من أى الطرز هو لأجاب بتهقئة عالية ؛ لأنه لو استطاع أن يكتب بالعامية وأن يصل منها إلى غايته في سعة الانتشار لما أحجم . وقد استخدم ولز العلم بمهارة كبيرة في القصة أكبر من المهارة التي استخدمه بها چول ڤيرن . ولكنه وجد أن القصة لا تؤاتيه على إيضاح أغراضه ، فتركها وعمد إلى ما وصفناه بأنه « رسالة مسهبة » في شرح الموضوعات التي يتماس فيها العلمان : المادى والاجتماعى .

ولعل أعظم ماحله على ترك القصة أنه رأى أن إغفال البطل منها يجعلها ماسخة ؛ لأن حيوية القصة بأشخاصها . وأغاب القصص ، يجعل مرتکز هذه الحيوية ،

الغريزة الجنسية ، فما تفتأ جميع القصص تتحرش بهذه الغريزة . والانتقال من هذا التحرش العامى إلى البحوث السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخطيرة يحدث للقارئ صدمة لا تتفق وفن القصة . وهذه القصص الخطيرة التى عالج فيها وز مشكلات المجتمع لن تعيش ؛ لأن هذه المشكلات تتغير ويحدّ غيرها بتغير الوسط الاجتماعى الاقتصادى . لأن مالنا من عواطف وأمان وما يرافقهما من سلوك وتفكير إنما هو كله ثمرة الوسط الاجتماعى الاقتصادى . ولذلك فإن القارئ لقصص وز الاجتماعية بعد عشرين أو ثلاثين سنة سوف يجدها غريبة عن قلبه وعقله ، فى حين أن تلك القصص الأولى التى تحوى « أبطالا » سوف تقرأ فى لذة مهما طال عليها الزمن ، وخاصة تلك التى يعتمد فيها وز إلى فكاهاته التى تقارب بل أحياناً تطابق ما خلفه ديكنز أحد أمراء القصة فى القرن التاسع عشر .

قال وز فى كتابه « طوالع الإنسان » ، وهو كتاب يبحث فيه مشكلات البشر ومستقبلهم

« لقد استغرق جزءاً كبيراً من حياتى الوجدانية ، كفاحى لأجل نشر المعارف المثمرة . فقد حاولت أن أجمع وألخص المعارف الراهنة كي يستطيع استغلالها فى المعيشة البشرية ، وكى أحمل غيرى ومن هم أكنى منى على أن يقوموا مثلى بهذا العمل . وكذلك عملت كي أجمع بين النظم غير المتناسقة من التفكير بشأن الحقائق ، وهى نظم ، يتجاهل كل منها الآخر ، فى بلادة الذهن وإضاعة الفرصة ، كما أن كثيراً من التشوش الذهنى فى التفكير البشرى يعود إليها . ذلك أن هذه الفلسفات والغيبيات المتناقضة ، التى لم تتناسق ، تزحم الذهن البشرى . وعدم تناسقها هذا يرجع إلى أن كلاً منها يتجاهل الآخر . وأنا لا أطيق هذه المتناقضات ؛ لأنى حين أعالجها أجد أنها تقلقنى وتربكنى . . . وما لذهنى من ميزة خاصة أو نقص خاص إنما يرجع إلى صفة واحدة . فإذا مدحت قلت إن عقلى يجابه المشكلات ، وإذا ذممت قلت إنه لا يفتن للخفى . فأنا لا أطيق التفاصيل المركبة أو الأكاذيب العرفية لأنى أخشاها جميعاً . . . وأنا أطرق فكرتى كما لو كانت سنداناً . . . »

أجل ! لقد طرق وز طائفة من الأفكار ودق عليها فى تكرار ، ولكن ، فى كل مرة ، يختار ناحية أخرى منها غير تلك التى دق عليها من قبل . ولذلك

انتقل من القصة إلى المقال الاجتماعي ، ثم جعل القصة تتناول بحوثاً اجتماعية مختلفة . وأخيراً ترك القصة أو كاد إلى تأليف الكتب الضخمة في الاجتماع . وقد نجح كل من أبسن وشو في استخدام الدراما للبحوث الاجتماعية . واحتفظ الأول بمئة في المئة من فن الدراما ، واحتفظ الثاني بأكثر من خمسين أو ستين في المئة . ولكن لا يمكن أن يقال إن ولز نجح في استخدام القصة حتى إلى الحد الذي بلغه شو . والحق أن المسرح يتيح للمؤلف معالجة المشكلة الاجتماعية أكثر مما تتيحها القصة ؛ لأن الأشخاص على المسرح يجسمون المشكلة بلا شرح مسهب لما تخويه من عُقد . ولكن مؤلف القصة يضطر إلى مثل هذا الشرح فتقلب القصة إلى بحث اجتماعي كثيراً ما يتعارض مع أصول الفن فيها .

عندما أتأمل حياة ولز ومؤلفاته أحس أن شهرته الذهنية الأولى هي العلم . فقد تلمذ للعظيم توماس هكسلي (والد جوليان وألدوس) ، الذي جعل من نظرية التطور مذهباً جهادياً ، وقضى حياته في مكافحة المظلمين والغيبيين كي يجعل هذه النظرية مألوفة تتحدث عنها الصحف ويسلم بها العامة . وقد نجح في ذلك . وشيء من هذا الروح الكفاحي قد انتقل إلى ولز ؛ فإنه حين ألف « خلاصة التاريخ » بل حتى في أواخر السنين من عمره لم يكن ينسى أن ينبه إلى أننا كنا سمكاً قبل ٣٠٠ أو ٤٠٠ مليون سنة ، فكيف نكون بعد مثل هذه الملايين في المستقبل ؟ وقد نبعت تكهناته المختلفة ، الخيالية والحقيقية ، من هذه البؤرة . فمن التكهّنات الخيالية هاتان القصتان : « حرب العوالم » و « ناس كالألهة » . ومن التكهّنات الحقيقية الحرب الأوربية الكبرى الثانية ، والدبابات والطائرات ، والقنبلة الذرية . وكانت بصيرته ، لسوء حظ البشر ، صادقة في كل ذلك .

ولكن ولز انقطع عن البحث العلمي ؛ لأنه اضطرّ عقب حصوله على درجة « بكالوريوس في العلم » إلى أن يسعى لرزقه ، فاختار القصة الخيالية والفكاهية أولاً حتى إذا زالت عنه الحاجة الملحة عمد إلى البحوث العلمية الاجتماعية ، أو ، كما قال هو ، محاولة التنسيق بين المعارف المادية والنظام الاجتماعي . وكأنه بهذه البحوث قد استأنف إشباع شهونه العلمية الأولى ولكن في الميدان الاجتماعي . وكتاب « خلاصة التاريخ » يعد حسناً من حيث إنه محاولة أولى في اعتسار

العالم أمة واحدة تسير متساندة في موكب الحضارة : الكتابة في مصر ، والورق في الصين ، والمطبعة في ألمانيا ، ثم بعد ذلك الفجار الثقافة على العالم كله . أو ، من قبل ذلك : الزراعة في مصر ، ثم نقود الأسكندر وجيوشه وفتوحاته ، ثم انفجار الحضارة الإغريقية المصرية الرومانية في البحر المتوسط . ثم يتصل العالم ويتشابك ، حتى إننا نرى ملكاً هندياً في بدء القرن الثاني قبل الميلاد يبعث إلى الأسكندرية يدعو المصريين إلى البوذية . ثم يزداد التشابك بمخترعات القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين إلى أن يعود استقلال الأمم وانفرادها مستحيلاً بل صاراً . إذ يجب التوحيد السياسى للعالم بحكومة واحدة .

وقد عاش ولز أيام طفولته في بدروم ، وكانت أمه خادمة للأسرة التي تعيش في الطبقتين العليين . وكانت أمه ، كما هو الشأن في الخادومات ، تخشى صعوده إلى إحدى الطبقتين . ولذلك هو يذكر من أيام طفولته ذلك البعبع الذي يسكن في الطبقة العليا . وقد أتاح له نجاحه أن ينتسب بعد ذلك إلى الطبقة المتوسطة ، ولكن بقي في نفسه خوف الفقر إلى يوم وفاته . وعندى أن هذا الخوف هو ، في سيكولوجية الأعماق الفرويدية التحليلية ، السبب لكراهته للاشتراكية الماركسية أو حرب الطبقات ؛ لأنه أبى أن يمثل طبقات العمال الذين ولد معهم في ظلام البدروم ، وأصبحت دعوته إلى الاشتراكية هي الدعوة الفابية أى اشتراكية التطور السلمى بالإصلاحات المتدرجة التي يقبلها أبناء الأمة جميعهم فقيرهم وثريهم .

وقد زار روسيا مرتين ، فلم يرتح إلى اشتراكيته ، وفهم منها مثلاً فهم برنهام الأمريكى في كتابه « الثورة الإدارية » أى إن القائمين بإدارة المصانع والمزارع والمكاتب قد أخذوا في النظام الجديد مكان المالكين في النظام القديم من حيث التمتع بامتيازات الأجور أو الرواتب العالية وغيرها . ولكن ليس شك في أن حجة ولز ضعيفة جداً في مكافحته للماركسيين . وقد أنفق كثيراً من جهده في هذه المكافحة العقيمة ، وكان في مستطاعه أن يتركها ، وخاصة لأن موضوعه الأصلى وهو « الحكومة العالمية » لا يحتاج إلى مثل هذه المكافحة . فقد آمن هو بالاشتراكية ، ووجد أنها ضرورية للسلام والطمأنينة للأفراد والأمم . ومشاجرته هنا للماركسيين الإشتراكيين تشبه مشاجرته القديمة في ١٩٠٦ حين وقف في الجمعية الفابية ، وهي جمعية تدعو إلى الاشتراكية

السلمية التدريجية ، يدعو إلى الكفاح السياسى ، فى حين كان زعماءها قانعين بالكفاح الثقافى . ووجد نفسه أيضاً أنه ضد مبادئ ماركس أى ضد حرب الطبقات ، والمنطق الكلامى ، والدوليات ؛ مع أن هذه « الدوليات » كانت الطليعة للبرنامج العالمى الذى انتهى إليه بعد ذلك . ولكن يمكن الدفاع عن ولز هنا بأنه أيقن فى تلك السنين أن المزاج الانجليزى أقرب إلى المبادئ القافية السلمية منه إلى المبادئ الماركسية . وحكومة العمال القائمة الآن ، بعد أربعين سنة من مشاجرته مع الفايين ، تدل على أنه قد صدق هنا أيضاً فى تكهنه السياسى ، كما سبق أن صدق فى تكهناته العلمية . وفى تلك الفترة وضع كتابه عن الاشتراكية « عوالم جديدة للقداى » ، وغايته أن يثبت أن الأثرياء والمتوسطين يجب أن يقبلوا النظام الاشتراكى مثل العمال ؛ لأن مصلحتهم تقتضى ذلك . ولكن ولز سيعرف فى السنين القادمة بمجهاده لأجل التوحيد العالمى . وأول مانجد هذا الاتجاه واضحاً فيه هو فى كتابه الذى ألفه فى ١٩٢١ « استنقاذ الحضارة » . وفهرست الكتاب تدل عليه : المستقبل المرجح للبشر ، مشروع الدولة العالمية ، التوسع الوطنى إلى الدولة العالمية ، إنجيل الحضارة ، تعليم البشر ، الكلية والجريدة والكتاب .

وهذه الفهرست لا تحتاج إلى شرح . فهو يقترح إيجاد حكومة عالمية تهىء البشر جميعهم بتعاليم موحدة إلى وطنية عالمية .

وفى ١٩٣٢ وضع كتابه « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » وهو دراسة موضوعية للحال القائمة للعالم فى تلك السنة كأنها الجغرافية الاجتماعية . اعتبر الفهرست أيضاً : كيف أصبح الإنسان حيواناً اقتصادياً ، كيف تعلم الإنسان التفكير والتسلط على القوة والمادة ، التسلط على المسافات ، التسلط على الجوع وكيف يغتذى الإنسان ، التسلط على المناخ ، كيف تشتري السلع وتباع ، كيف ينظم العمل ، لماذا يعمل الناس ، كيف يكافأ العمل وكيف تجمع الثروة ، الغنى والفقر وخصومتها التقليدية ، مهمة المرأة فى عمل العالم ، حكومات البشر والقتال الحربى والاقتصادى ، عدد البشر وصفاتهم ، الطاقة الفائضة للبشر ، كيف يعلم البشر ويدربون ، طوابع البشر .

ثم كتابه « أشكال الأشياء القادمة » وهو تعقبات وشروح وتكهنات عن الكتاب السابق . وقد وضعه فى ١٩٣٣ .

وأخيراً كتابه «طوالع الإنسان» وقد ألفه في ١٩٤٢ . وهو أيضاً مثل الكتاب السابق تعقيبات وشرح .

وصفحات هذه الكتب الأربعة تبلغ نحو ألفي صفحة كبيرة . وهي جميعها حافلة بالإحصاءات والإشارات إلى دراسات أخرى .

ومن هذه العجالة يرى القارئ أن ولز طراز جديد من الأدباء . أجل ! هو أديب علمي ، سوف نرى في هذا القرن مئات يسرون على الطريق الذي شقه . ولن يكون هذا للتقليد ، ولكن لأن أدباء القرن العشرين سيجدون من واجهم أن يقفوا حياتهم على حل المشكلة القائمة ، وهي التقدم الرائع في العلوم المادية مع الجمود التام في العلوم الاجتماعية ، وما ينتجه هذا من الرعب في جميع المتبصرين المتكهنين الذين يرون الطاقة الذرية تصطدم بالغيبيات .

سلام موسى